تستبيح امرأة غير شابة ان تكون بلباس أقل من ذلك حشمة وكمالا (والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح ان يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وان يستعففن خير لهن والله سميع عليم)ولقد اطلنا الشرح نخرجنا عن الموضوع وشرحنا اخلاق المسلمين ذلك لأننا نعتقدان ماقدمناه برهان قاطع على ان تعدد الزوجات لم يتخذولم يكن ليتخذ مشجعاً على انتشار ديانة الاسلام وبقي علينا ان ننظران كان النبي اتخذ لذائذ الجنات التى وعد بها الشهوات سلما لاستمالة بنى آدم وحملهم على اعتناق ديانته

الفصل الرابع

﴿ جنات المسلمين ﴾

الحياة الآخرة — السعادة الاخروية في مذهب المسيحيين —
الرمز والتفسير — السعادة الاخروية فى مذهب المسلمين

ليس للحياة الآخرة من المكانة فى بعض الديانات القائلة بخلود الارواح مالها فى البعض الآخر فالديانة المسيحية تشير الى انها هى المقصد الاسمى من الحياة الدنيا ولذلك يجب ان يعتقد المرء بان لذائذ هذه الدار وزخارفها خيال باطل وان يتجرد عن نفسه كى تطهر روحه فيتقدم رويداً رويداً في الحياة العقلية لينال بها السعادة العظمى ومع تكرار هذه الحقائق ونشرها بواسطة القائمين بامر هذا الدين لايزال أغلب المسيحيين يراها تصورات

ذهنية كمالية بها تجتهد الكنيسة ان ترفع ما انحط من طبائعهم ومن هنا يشاهد المتأمل فرقاً عظيما بين التعاليم والاعمال كما تتناقض الاقوال والافعال كثيراً عند المسيحيين ويرى الكثير منهم فى ضميره وان لم يجاهر به ان فى دياناتهم قسما من التخيلات لاتسمو اليه مداركهم ولا يصبو اليه الا من اختصه الله بالمواهب الصمدانية ويحسبون انهم أدوا واجباتهم باصغائهم الى تلك الحكم البالغة واعتقادهم انها من دياناتهم وانهم يرجعون اليها عند الحاجة لبيان مقامها الرفيع ومكانتها العلياء كذا هم يعملون فى قاعدة (انما الحياة الدنيا طريق الآخرة) على ان سعادة الاصفياء سر من الاسرار التى تخفى على المسيحيين وهو غريب لان سعادة الآخرة هى المرجع الذى كان يجب ان ترمى اليه اعمالنا كلها ولكن مع الاسف نرى العقول لاتكاد تدرك من هذا المقصد الاسمى شيئاً ومما يزيد الامر تعقيداً واشكالا مذهب بعثة الاجسام على الكيفية التى يذهبون اليها فانهم يقولون ان الاجسام تتحوّل يوم الحشر من أجسام مادية الى أجسام روحية . قال القديس بولس خلق الجسد من مادة تزول وسيبعث على كيفية لاتقبل الانحلال لانه خلق جسداً حيوانياً وسيبعث جسداً روحياً وماذا ياترى تكون حقيقة تلك الاجساد الروحية التى لاتزال اجساماً فلها حواس وهى ارواح فتتمكن من مشاهدة ربها . افهل السعادة التى يعدنا بها القسس والرهبان هى تصور تلك السعادة أم هى سعادة حقيقية تقوم بغير التصور والتخيلات تلك مسائل ليس في الانجيل ولا التوراة نص صريح يفسرها وان اجتهد الكنائسيون فى ايضاح طرف منها واهمهم فى البحث هو القديس

(أوغستان) فانه كان شديد الولع بمعرفة تلك السعادة وغاية ما وصل اليه انه لم يبلغ حد اليأس فى تفسير هذا السر المكنون بمعونة الله وقدرته وجميع كتبه دالة على شدة شتغاله بتلك الحياة الادبية السعيدة التى يتصورها الاولياء فيشاهدون ربهم بتخيلها قبل البعث وبعده وعلى كل حال فلا تزال تلك السعادة سراً مختوماً لا يعرفه الناس ولايدركه الا الاولياء

ومن هنا وقعت الديانة المسيحية بين مذهبين متناقضين فمن قائل بان السعادة الاخروية انما هى حالة نفسية مرجعها طهارة القلب والمشابهة بين المخلوق والخالق ومنهم من يقول بل هى غير ذلك أمر مادى محسوس والف (سيرانتى) كتابا كله بدع غامض المعنى مبهم المراد جاء فيه ان السعادة الأخروية عبارة عن اعراس تتعاقب أثر بعضها وقال المجذوب (شريد نبورج) رئيس مذهب كنيسة أورشليم الجديد فى القرن الماضى ان لجميع اللذائذ الدنيوية نظائر في الآخرة ويظن بذلك انه توصل الى حل الاشكال واعرب عن مصير الناس ولكن جاء كتابه بعبارة مستهجنة سخيفة فلم ينل من قرائه التفاتا حتى بصفته اعجوبة أو خرافا .

وأما الاسلام فلم ينظر الى الآخرة نظر الدين المسيحى ونرى المسلمين ينتظرون ماوعدهم به النبي من النعم والسعادة وقلوبهم مطمئنة ولم يضحوا الدنيا للآخرة أما نعيم الآخرة فالمتكلمون من أهل السنة يقولون بانه حالة تقوم بالنفس فتجعلها من السعداء وأما مشاهدة الذات العلية فان النبي ضرب لها امثالا حسنة قريبة المنال من مدارك الشرقيين ولولا ذلك لما عقلوها البعد طبائعهم عن ادراك الامور المعنوية المحضة اذ الغربيون انفسهم لم يدركوا

ذلك الامر المعنوى على ان رسولهم قد كلفهم امراً جللا اذ حرم عليهم ان يفكروا فى تشبيه الخالق بالمخلوق وحرم عليهم تصوير المخلوقات الحية ولولا ذلك للزمه ان يطلب من عقولهم مالاقبل لهم به فيكلفهم بادراك اللذائذ الذهنية المحضة أو أنه يرجع بهم الى مذهب تجسم الاله ومايتبعه من الاوهام فيتصور لهم ربهم بصورة انسان جالس من حوله الاولياء والاصفياء ولكن صناعة الرمز والاشارة سهلت له الاستعلاء على هذه المشكلات (ان الله لايستحي ان يضرب مثلا مابعوضة فما فوقها فاما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا اراد الله بهذا مثلا يضل به كثيراويهدى به كثيراومايضل به الا الفاسقين) ولو رجعنا الى القرآن لنتلو الآيات التى نزلت فى بيان سعادة الاخيار فى تلك الدار لوجدناها فى اول الامر تصف جنات عاليات قطوفهادانية كانها الحدائق الغناء والبساتين الفيحاء التى توجد فى هذه الحياة الدنياوعلمنا بان تلك الاوصاف كانت من أكبر المؤثرات فى نفوس العرب المنزلة عليهم . وفى الواقع انه ليلذ الى البدوى الذى تعود ارضاً قحلاء وماء آسنا ربما لايجده ايضاً طول يومه ان يتصور بان سعادته النهائية هى الراحة فى جنة خضراء ودوحة فيحاء تسقى بماء كوثرى وفيها من كل فاكهة لذة للاكلين ولن يذوق لمثل هذا الوصف معنى الا من عاش فى البادية وكابد الحياة فى الصحراء وهذا هو السبب فى ان النبي (صلعم) كان يأتى بمثل ذلك حينا بعد حين وهو تكرار ربما تعبت منه عقول الغربيين لعدم تعودها عليه ولكنه كان يفعل كثيراً فى نفوس سامعيه من أمة العرب اذ هوفى الواقع

أسلوب فى الخطاب له منزلة رفيعة عندهم ولا يزال يثير عواطفهم ويحرك نفوسهم على بساطتها وسهولة موردها كما شاهدت ذلك بنفسى ولقد الذ اذ أتخيل النبي واقفا تحت شمس البادية حيث لاظل يقى من حرها ويخطب فى القوم موصفا ظلال الجنة الوارفة التى وعد الله بها المتقين وأشاهد الجمع هائما من حوله مأخوذاً بحلاوة الخطاب لذى يلقيه بصوت يزداد وقعا فى القلوب (ولمن خاف مقام ربه جنتان فبأى آلاء ربكما تكذبان ذواتا افنان فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهما عينان تجريان فبأى آلاء ربكما تكذبان فيهما من كل فاكهة زوجان فبأى آلاء ربكما تكذبان متكئين على فرش بطائنها من استبرق وجنى الجنتين دان فبأى آلاء ربكما تكذبان) وكان كلما قال آية زاد وجد السامعين بما تزيده فى وصف الجنة من الطلاوة والتمكين . ولقد جرى الشرقيون على عدم التفريق بين جنة الاخيار وجنة الدنيا لذلك اعجبهم ذلك الوصف فاخذ بمجامع لبهم لمطابقته اذواقهم واشتغل بها عقلهم وان لم يرد النبي بها وصف السعادة الباقية فى الواقع ونفس الامر وعلى هذا النمط جاء وصف اللذائذ السماوية وهو ايضاً مأخوذ مما كانت العرب تميل اليه فى هذه الدار (وعندهم قاصرات الطرف عين كأنهن بيض مكنون (وزوجناهم بحور عين (فيهن خيرات حسان فبأى آلاء ربكما تكذبان حورٌ مقصورات فى الخيام فبأى آلاء ربكما تكذبان لم يطمثهن انس قبلهم ولا جان فبأى آلاء ربكما تكذبان متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان فبأى آلاء ربكما تكذبان) (فاصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشئمة ماأصحاب المشئمة والسابقون السابقون أولئك المقربون

فى جنات النعيم ثلة من الاولين وقليل من الآخرين على سرر موضونة متكئين عليها متقابلين يطوف عليهم ولدان مخلدون باكواب وأباريق وكأس من معين لا يصدعون عنها ولا ينزفون وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون (انا أنشأناهن انشاء فجعلناهن أبكاراً عرباً اترابا لاصحاب اليمين) (ان للمتقين مفازاً حدائق وأعناباً وكواعب أترابا) تلك اشارات واستعارات ليس الامر المادى فيها الا رمزاً للعشق الروحانى وهو ضرب من ضروب الكتابة والقول معهود عند الأمم الشرقية وفى الزبور شئ كثير من ذلك وكأن الكتب المقدسة استعارت الحب الانسانى وقوة تأثيره فى النفوس لتشبه به للناس نعيم الآخرة وهو أمر طبيعى لان اجتماع النوعين الذكر والانثى يشخص فى نفوسنا نحن الغربيين صورة السعادة الابدية فالذوق الغربى لا ينفر من هذه التشابيه والاستعارات على شرط ان لا يتوسع فيها الى التصريح المطلق ولكن ذوق الشرق لا يطلب هذه القيود وينبغى له ان يكون التشبيه تاماً فلا يغفل احد لوازمه ولا يبهم طرف من متمماته وهذه وسيلة يتوصل بها الى تمكين العقول المادية من تصور الادبيات المحضة وكان هذا الاسلوب مقبولا جداً فى القرون الوسطى فقد احتوت قصة الورد لمؤلفها (غليوم لوريس) على أربعة آلاف بيت كلها صور واستعارات وتشابيه وقد ذهب بعض الباحثين الاتقياء الى ان تلك الوردة التى ولع المؤلف بحبها هى الذات الالهية لاذات المرأة المحبوبة . ومع كون الكتاب صريح فى الاشارة الى الماديات فقد عدوه سفراً دينياً وليس هنا

موضع البحث فى صحة هذا التفسير لقصة الوردة وانما غايتنا أن نستخلص مما تقدم عدم المانع فى اعتبار مؤلفات الشرقيين قابلة لتفسير أدبى وان دل ظاهرها على ان المقصود منها أمور مادية فالعبرانيون والعرب من بعدهم استتروا بستار اللذائذ المادية والنعيم البدنى وهم انما قصدوا الادبيات والسعادة الروحانية وفى عملهم هذا تعاكس فى الالفاظ واشارات للمراد أو مفارقات وموافقات تلذ لها عقولهم ولهذا لا يسعنى ان أرى فى نشيد بعضهم (لعلها تقبلنى بفمها) اشارة الى واقعة مع امرأة كذلك ألفاظ العشق وعبارات الوجد والهيام المنثورة فى المزامير لاتنقص من قيمة هذا الكتاب المقدس وكونه كتاباً رمزياً نعم ان تقرب بعض العباد المخلصين من الله كان أمراً بعيداً عن عقول العبرانيين الاولين والعرب الاوليين والشرقيين على العموم ولكن ليس المراد هنا معرفة الوصلة والزلفى لدى الله لان ذلك يستلزم معرفة حقيقة تلك الاناشيد وهذه التشابيه وانما الغرض بيان انها رمز لا حقيقة وقد اعترف مؤرخ اللغات الشرقية وهو موسيو (رونان) بصحة قولنا وبأن عقول العرب والعبرانيين مطبوعة على استعمال التشابيه والاستعارات والاكثار من المجازيات فى الالفاظ

ومتى سلمنا بان المقصود من المزامير شىء آخر غير ما يعطيه ظاهر لفظها فلا يجوز حينئذ تفسيرها تفسيراً لفظياً لزمنا أن ننحو هذا النحو بعينه فى فهم الآيات القرآنية التى جاءتنا بوصف الجنان نعم يصعب علينا ان نرى خلف هذه الصور المادية الصرفة مرامى أدبية الا ان هذه الصعوبة آتية من مخالفة هذا الاستعمال لما تعودناه فى أقوالنا وكتبنا ومن السهل جداً أن

يرى الواحد خلفاً بينه وبين آخر من غير امته فى طرق التفاهم والحديث فالذى يجب أن يشار اليه بلطف ورقة عندنا يبرزه الشرقى فى صورة حقيقية فلا يدعون لعقولنا محلا لابصاره من خلال ألفاظهم

ولقد يتعذر علينا أن نعرف أى المعنيين ينطبع فى قلب المؤمن عند تلاوة القرآن معناه اللفظى أو معناه الحقيقى ويحتمل ان ذوى العقول الضعيفة منهم لا يفقهون غير مايدل عليه اللفظ بظاهره وأما الآخرون فيرون فيه معنى يميل بهم الى مرامى سامية يذوقون فيها حلاوة الزلفى بين العبد وخالقه والكثير منهم يسمعون القرآن فلا يعتقدون بظواهر كلمانه ويشعرون بانه يرمى الى سعادة مخصوصة يتصورونها على كيفية غير واضحة لهم تماماً على ان فى القرآن نفسه آيات كثيرة جاءت فى السعادة الاخروية خالية من التشبيه والاستعارات . فلا يقول بان المسلمين لا يعرفون سعادة ولا نعيما مما وعدهم به القرآن غير ما كان مادياً شهوياً الا من غفل عن تلك الآيات ومال الى تغيير أصل الكتاب وقلب الحقائق التى ثبتت فيه (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم)

وقد قال المفسرون فى رضوان الله ان الله يتجلى على عباده المصطفين فتكمل سعادتهم ويتم بذلك نعيمهم وجاء (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين) (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار) (زين للناس حب الشهوات من النساء

والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب)

على ان الكتاب نفسه لم يترك مجالا لمعترض فنهى عن تفسير آياته تفسيراً لفظياً أو تجسيم التشبيه بما لا يحتمله المقام فقال فى سورة آل عمران (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الالباب) (وان منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)

وقد اتفق المتكلمون من المسلمين الذين اشتغلوا بتفسير القرآن خصوصاً أهل السنة الذين يرجعون فى تفسيرهم الى الاحاديث النبوية والاقوال المأثورة عن السلف ويلاحظون أسباب النزول على ان السعادة الاخروية انما هى أمر ذهنى يقوم بالنفس فتصير منعمة مطمئنة وهذا النعيم هو أكبر النعم فلا نعيم بعده قال الشيخ العالم (رب ان الجنة لا ترجى الا لرؤياك فيها ولولا نور ذاتك البهية لعفناها) وانى اختم هذا الفصل بدعاء مأثور عن الشيخ القشيرى ولعله لا يذرى ببعض كتب الدعاء المسيحية (إلهى انك تهددنى بفراق يحرمنى على الدوام من تجلياتك البهية فيارب اصنع بى ما تشاء ولا تحرمنى من مشاهدتك العلية فليس ثم أمر مذاقاً وأشد قتلا من ألم هذا الافتراق وماحيلة النفس بغير ربها الا أن تعيش فى فزع وتبقى فى

حيرة واضطراب رب ان النفس لترضى بان تذوق الموت مائة ألف مرة ولاتذوق حرقة فرقتك مرة واحدة رب ان مصائب الدهر وجميع الامراض القتالة لو اجتمعت علىّ لاحتملتها غير متوجع من وقعها ولـكن لاطاقة لى على احتمال بعدك عنى رب لو احتجبت عنا برهـة اقحلت أرضنا وغاضت أنهارنا فاذا يكون حالنا لو دام هذا الاحتجاب لولاه لما احرقت نار الجحيم واشتد لهيبها رب ان فى تجليك حياتنا وكمال سعدنا ونعيمنا وفى احتجابك عذابنا وجحيمنا)

الفصل الخامس

﴿ القضاء والقدر ﴾

متشابهات القرآن ومذهب الناسخ والمنسوخ — الاختيار والقضاء والقدر فى القرآن والحديث — مذهب (توماس) ومذهب (مولينا) — الجبرية والقدرية

يثبت الناس كل مبحث بالقرآن اذ من السهل جداً ان يجد فيه الباحثون سنداً لدعاويهم المتناقضة والقرآن فى هذا لايختلف عن غيره من الكتب المقدسـة التى تستوقف المطالع بظواهر متشابهاتها والقرآن على مذهب اهل السنة قديم مرقوم من الازل فى اللوح المحفوظ ونزل به الملك جبريل (عليه السلام) فى الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان وهى ليلة